

حيث لا ينفع الندم

إنها قصة حقيقية مقدمة بقالب الخيال. جرت أحداث هذه القصة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. إنها قصة عادية تحدث في كل زمان ، تشبه القصص الخيالية التي نقرأ عنها في كتب السير للأدب الجاهلي. كلنا نعرف قصة قيس وليلى، جميل وبثينه وغيرهما. عانى المحبون في هذه القصص من آلام الفراق وغالبا ما أدى ألم الفراق إلى كارثة الموت أو الجنون.

سنطلع على شخصيات هذه القصة من العالم الآخر، أعني عالم البرزخ، ونتعرف على مجريات الأحداث وحقائقها من هذه الشخصيات بعد أن صقلهم ألم العذاب ، وألم الندم، وألم دفع الثمن لمن حصد الحنظل بعدما توقع الثمر.

استيقظت يوما فرأيت نفسي في مكان غير بيتي. سألت نفسي: أين أنا يا ترى، إنني أشم رائحة شذية، إنها رائحة الورد وأسمع زقزقة العصافير الطروب. نهضت من فراشي فإذا بي أرى العجب من هذا المكان الذي لا أعلم كي انتقلت إليه. هل هذه هي الجنة التي قرأت عنها في القرآن الكريم. لا بد إنها هي، فأوراق الأشجار الوارفة تبدو لي ورقة من فضة وورقة من ذهب، ولكن بريق هذه الأوراق ليست كذهب الدنيا ولا فضتها. إنها ذات ألوان عجيبة ورائحة تأخذ بالألباب.

بعد أن تعرفت على هذا القصر، الذي هو أعجوبة من أعاجيب الزمان، فالمفروشات لا يمكن وصفها ولا يمكن أن يوجد لها مثل على الأرض. كل شيء مصنوع من الأحجار الثمينة التي لا يمكن أن تقدر بثمن. يستطيع المرء أن يرى نفسه في كل حيطان المنزل كما يرى الغابة الجميلة المحيطة بالقصر. نظرت إلى نفسي في المرأة فسبحت الخالق الذي غيرني إلى هذه الخلفة الجميلة بعد أن كنت عجوزا هرمة . أيقنت أنني قد فارقت الحياة وأنا في عالم البرزخ، فحمدت ربي على المنزلة التي أعطانيه إياها. الولدان المخلدون كانوا يطوفون بالبيت والسعادة والفرحة تملأ كل ذرة من ذرارة هذا المكان السحري. خرجت إلى الحديقة التي هي كالغابة فوجدت كل شيء فيها ذات ألوان غير ألوان الدنيا. تقدمت قليلا استكشف المكان ومشيت وأنا اشعر بسعادة عارمة تملأ قلبي وكياني. وبينما أنا أسير وألتفت يمينا ويسرى استمتع بهذا الجمال البديع، لمحت امرأة من بعيد تسير مثلي. اقتربت منها وحييتها تحية الإسلام، فردت على السلام ودعتني للسير معها كي نتجاذب الأحاديث.

سألتني: متى جئت إلى هذا المكان؟

قلت: للتو. أخال أنني منذ برهة كنت في بيتي المتواضع في الدنيا. وهل أنت مثلي حديثة العهد في هذا المكان؟

قالت: لا بل سبقتك بسنوات طويلة لا أدري كي هي، إذ لا زمان في هذا المكان.

قلت: من أنت وما اسمك.

قالت: أنت لا تعرفيني، ولكنني أعرفك. كنت صغيرة عندما كنت تزورين بيت خالتك بدرية.

قلت: نعم إنها خالتي وكانت تسكن في حارة البياضة وأتذكر البيت جيدا. فيه خمسة غرف تطل على فناء المنزل، وغرفتين مرتفعتين يمكن الوصول إليهما بصعود الدرج القديم العالي.

قالت: هذا هو المكان بالضبط. أتذكرك وأنت صغيرة، كنت تحضرين مع أمك لزيارة خالتك وتلعبين في فناء البيت ببراءة وعفوية مع ابنة خالتك خيرية التي كانت تحضر معكن.

قلت: هذا صحيح، ولكن من أنت، ولماذا أرى على وجهك مسحة من الحزن ونحن في هذا الجنة الواسعة، فأنا قرأت في الكتب أن لا وجود للحزن في العالم الآخر، وخاصة أننا في الجنة.

قالت: نعم، لا وجود للحزن في الجنة ولكننا لسنا في الجنة بعد.

قل: أين نحن إذا الآن.

قالت: نحن في عالم البرزخ، وهو إما أن يكون جنة وإما أن يكون حبسا فيه من ألوان العذاب ما لا يخطر على بال. ومن أنواع العذاب الندم وعذاب الضمير ما يصعب تحمله.

قلت: ما هو نوع العذاب الذي تعرضت له.

قالت: ليس عذابا بالمعنى الذي تظنين. فالحمد لله لم أتعرض للعذاب المؤلم، عوقبت فقط بعذاب الضمير و بالندم وهو الشعور بالذنب وعدم القدرة على تصحيحه أو الرجوع عنه بعد أن فارقت الحياة الدنيا.

قلت: ما هو ذنبك وما الذي اقترفته في حياتك الدنيا؟

قالت: لم أقترف ذنبا أحاسب عليه بعذاب الجسد، وذلك لأنني كفرت جزءا منه في حياتي الدنيا. فقد أصبت بمرض عضال أنهك قواي وآلمني كثيرا حتى نهاية عمري، ولكنني أتمنى لو كنت قد تصرفت بشكل مختلف ولم أعرض نفسي لعذاب الضمير هذا.

قلت: لا عليك كلنا نخطأ، وعند الاستغفار تتمحي الذنوب.

قالت: إلا إذا كانت تتعلق بالبشر.

قلت: وهل ظلمت أحدا في حياتك؟

قالت: نعم. بنيت سعادتي على تعاسة امرأة أخرى. فظلمتها وكنت السبب في مرضها ثم موتها وهي لم تبلغ بعد الحادية والعشرين من عمرها. تزوج أبي سعيد بعد موت زوجته، أم سعيد، من أمي الأرملة التي ليس لها سواي، فأرادت أمي أن تزوجني إياه بعد أن رأته من كرمه وحسن خلقه، فشجعتني على إغراءه بشتى الوسائل كي أجلب نظره فيتزوجني. فكنت أتزين وأتحين فرصة رؤيته بشتى الوسائل مستعملة الابتسامات والغنج والدلال والكلمات المعسولة.

قلت: لا تعذبي نفسك بهذا التفكير، فالزواج ليس محرما وقد سمح به الدين الإسلامي.

قالت: نعم على شرط أن لا يكون فيه أذى لمخلوق. لقد خنت أمانة الصداقة، وخنت أمانة الثقة التي أودعتها عندي خالتك، هل تعلمين أنني كنت ضرة خالتك؟

قلت: كان ذلك من زمن بعيد وكنت صغيرة جدا. ولا أذكر أنني رأيتك.

قالت: كنت طفلة مميزة برقعة شعورك وحبك لمن حولك وخاصة خالتك بدرية.

قلت: لا أعلم لماذا تركت خالتي في مخيلتي نكري لم تتمح من قلبي حتى آخر يوم في حياتي. كنت أحبها وأراها ملكة الجمال والرقعة والحسن والبراءة. كنت أراها ملاكا يمشي على الأرض. كانت كلما زرتها مع أخواتي وإخوتي وأبناء خالاتي تقدم لنا الألعاب والحلوى وتعني لنا بصوتها البديع أغاني الشوق والحرمان والحب والهيام. لم أكن أعلم عندئذ سبب تأوهاتنا ولمن كان حنين قلبها وشوقه. وكم حزنت لفراقها عندما ماتت. بكيت كثيرا حتى وددت أن أموت معها وادفن في قبرها مت شدة تعلقي بها.

قالت: كان حنينها في اغنياتها لزوجها التي تزوجني وانتقل حبه لي. وا ندماء. لقد دفعت الثمن غاليا.

قلت: ما ذا حل بك، بالله عليك لا تعذبي نفسك إلى هذا الحد، لم يكن في زواجك أي حرمة تعاقبين عليها.

قالت: لو علمت التفاصيل لتغير رأيك في.

قلت: أتذكر خالتي التي كنت أحبها كثيرا، كما أتذكر كيف أنها مرضت مرضا عضالا في القلب بعد أن تزوج زوجها عليها ورفضت أن تتركه لأنها كانت تحبه حبا شديدا، ولكن عندما ساءت حالتها الصحية رضخت لدعوة أهلها بالذهاب إليهم لعلها تتعافى من مرضها عندهم. ودخلت المستشفى في حالات إسعافية عدة مرات، ثم اشتد عليها المرض فلازمتها أمي وكنت معها في بيت جدي وجدتي. وفي يوم كنت ألعب مع أولاد خالتي عندما وجدنا الوجوه وجوما، باكية وكأن مصيبة وشيكة الحدوث ستحل بهم. لم نكن ندرك فداحة الأمر. وأتذكر

زوج خالتي سعيد يسير جيئة وإيابا في فناء الدار ودموعه تنهمر على خدية ويستجدي رؤية خالتي بدرية، زوجته، ولكنها ترفض رؤيته. وفجأة أسرع أمي من المربع الذي كانت خالتي فيه طريحة الفراش، وطلبت من سعيد الصعود لرؤية خالتي بدرية. وعلمت فيما بعد القصة أنه عندما أحست خالتي باقتراب الأجل، طلبت زوجها سعيد، وذكرت اسمه وأمسكت بيده ثم فارقت الحياة.

قالت: نعم، لقد كان ندمه يحطم القلوب. لم اعد استمتع بالحياة معه طيلة مرض خالتك وبعد موتها. فعندما فارقت إلى بيت أهلها، ورفضت أن تقابله، حزن حزنا شديدا عليها وخاصة بعد أن علم أن مرضها لا شفاء منه. أراد أن يعرض لها عن إهماله لها، إذ كما تعلمين كان رجلا ثريا جدا فقد كان تاجر حديد في باب النصر وكان يملك خانات كبيرا وأموال طائلة وبيوت ودكاكين لم أكن أخال أن تبيد أبدا. فرفضت مقابلته ورفضت أي هدية منه. ومرة طلب بإلحاح ورجاء أن يقابلها فرفضت، فرجاها أن تطلب منه شيئا، أي شيء تشتتهي عليه مهما كان غالي الثمن، كي يلبي طلبها في الحال، فطلبت منه أن يرسل لها قصة قيس وليلى المسكينة كانت تحبه وتريد أن تفهمه أن حبها وتعلقها به وشوقها إليه كان كحب قيس وليلى وشوقهم، ولكنه رمى حبها واستهان به، ولم يقدره، لقد احتفظت بهذا الحب، ولكنه إذ رماها لا تريد أن يشاركها قدسية هذا الحب الكبير في قلبها. لم تستطع أن تنسى حبها له، ولكنه نسي، فما قيمة عودته إليها. كانت تحبه، ولكن كرامتها أكبر من أن تطأها الأقدام.

قلت: نعم أذكر كيف كانت تغني أغاني الشوق، وكيف كانت تتزين كل يوم وكأنها تنتظر الحبيب، الحبيب الذي تريد مقابلته في خيالها، لأن الخيال أرحم من الواقع. كنت أخالها وأنا في حداثة سني أنها سعيدة في غنائها. لم أكن أدرك حينئذ أن الطير يغرد أحيانا من الألم. كنت أشعر بالسعادة بعد أن رجعت لبيت جدي لأنني استطعت رؤيتها كلما زرتهم، وأما عندما كانت في بيت زوجها، فكانت رؤيتي لها نادرة.

قالت: عندما ماتت خالتك، انهار سعيد كليا. جاء إلى البيت وكان يرتمي على الأرض ويردد كلمات اللوم لنفسه ولي. لم يذق طعم النوم طيلة أسبوع كامل. أقام لها أعلى وأفخم ضريح، وظل لمدة عام تقريبا يذهب لزيارة قبرها ويجلس بجانبه الساعات الطوال. لم يعد زوجي الذي أعرفه. وتمنيت لو لم أعرفه ولم أكن السبب في فراقه عن حبيبته التي لم أكن أعلم أنه يحبها لهذا الحد.

قلت: قصت لي أمي هذه الأحداث بالتفصيل بعد أن كبرت، كما أنها حدثتني أن التابوت وقف عدة مرات أثناء الجنازة ولم يستطع حاملوه أن يسروا به متعجبين. وعللوا ذلك بأنها كانت متعلقة بالحياة أو بزوجها، فأرادت أن توقف الجنازة كي تعود إليه. ربما كان هذا من الخرافات التي سمعتها أمي من الناس. ولا غرابة في الأمر، فان سر الروح شيء عجيب لا يعلمه إلا الله تعالى. كانت قصة حياة خالتي درسا لي فيما بعد أن كبرت، درسا لم أنساه طيلة

حياتي. كنت حساسة ورقيقة الشعور، فتعلمت من هذا الدرس أن لا أدع الرومانسيات تتدخل في حياتي الشخصية، إذ أنها تؤدي في أغلب الأحيان، بل دائماً، إلى العذاب وتحطيم القلب. وأنا لا أطيق العذاب وأهرب منه وأتأشاه. وأكره الضعف والاستسلام والخنوع لغير الله. فالحبيب البشر مثلي ضعيف، ومثلي خطأ، قد يطأني بقدمه ويسير في طريقه غير آبه بما حصل لي. تيقنت أن من يعيش في عالم الخيال الرومانسي يشعر بالسعادة المؤقتة الزائفة، إذ سرعان ما يصطدم بعالم الواقع المثبط للأحلام، فيرى نفسه قد زج في أعماق أرض الحياة بعد أن كان يخلق في الأعلى. والمصيبة أن يتوقع المرء شيء ثم يفاجأ بشيء آخر، وتوقع الشيء قبل حدوثه يهون عليك تحمله.

قالت: أنت محقة، أنا كنت مثلك، عشت في عالم أحلام الحب وظننت أنني سأكون سعيدة بحب سعيد وأني سأمتلك الدنيا بأسرها إن هو تزوجني، وتغاضيت عن حقيقة سحق كل من يعترض طريقي في هذا الحب الجارف، فإذا بي أجد نفسي قد تحطمت مع تحطيم غيرها كما ترين. تعلمت أنا أيضاً درساً لم أنساه، فقضيت بقية عمري أنشد الحبيب الحقيقي.

قلت: وهل وجدتيه، لا يوجد حبيب بالكمال الذي نتصوره ونسعى إليه بكل ما في وسعنا، النتيجة تكون عادة واحدة، خيبة أمل، ضياع الأمل، تحطيم القلب المحب.

قالت: نعم لقد وجدته وكنت سعيدة بلقائه ولم أعد أشعر بالخوف، بل قضيت بقية عمري في اطمئنان وراحة نفسية بعد أن انتفى الخوف والقلق من حياتي.

قلت: هذا غريب حقاً، لم أسمع به من قبل، قد يكون هناك حبا جارفاً يملأ القلب بالسعادة العامرة، ولكنه لا بد أن يكون مؤقتاً. لا وجود للحب الدائم في الحياة الواقعية. فما أنت قد أحببت سعيد، وهاهي خالتي قد أحبته أيضاً، فماذا كانت النتيجة. أنا لا أصدق ما تقولينه.

قالت: بل صديقيه وكونوا على يقين منه. لقد وجدت حبي المنشود وكنت سعيدة به في حياتي وبعد مماتي.

قلت: أن تغالطين نفسك. لا بد أنك تمزحين معي.

قالت: لا بل أنا في كل غاية الجدية واليقين. إنه الله تعالى الذي لا يخون ولا يخلف الميعاد، إنه الأمان، إنه الحب الحقيقي. عنده تجدين الرحمة والحب الأبدي. عنده ينتفي الخوف ويحل محله الأمان. وبعد الأمان يأتي السرور والنعيم. كان معي في كل أزمتي فشعرت بالأمان معه. ندمت على أفعالي فعلمت أنه الغفور، مرضت فعلمت أنه الرحمن الرحيم وأنه وحده الشافي، يشفي الأبدان إن شاء في الحياة أو بعد الموت، ويشفي القلوب التي في الصدور من أدرانها، حزنت لتصرف زوجي معي فعلمت أنه العوض والأنيس. وزوجي سعيد وجد

الحبيب الحقيقي أيضا بعد أن وطأته الراقصة بقدميها وطردته. الله لا يطرد محبا أبدا. إنه الكريم. إنه أكرم الكرماء.

قلت: سمعت بعدئذ أن زوجك سعيد أصبح فقيرا بعد غناه الفاحش. فهل هذا حقا ما جرى له!

قالت: الأفضل أن يقص عليك ما حدث بنفسه، فما هو قادم إلينا، وتستطيعين سؤاله عن ما جرى له.

نظرت أمامي فإذا بعمي سعيد الذي كنت أحبه وأنا صغيرة لأنه كان كريما على الأطفال وكان يغدق الهدايا علينا في كل مناسبة.

قلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: وعليك السلام. من أنت أيتها الأخت.

قالت زوجته: إنها هدى، ابنة أخت بدوية الصغيرة التي كانت تزورنا مع أمها ملك.

قالت: حقا. يا مرحبا، كم كنت أحب الأطفال وأحبك بالذات بسبب ذكائك وتقديرك للهدايا التي كنت أقدمها لك. فكنت تشكريني وتعيدني الشكر مرات ومرات حتى تشعريني بالسعادة والفضل. لم يتح لي المجال أن أشكرك على هذا في الدنيا فدعيني أعبّر لك الآن عن شكري بالسعادة التي كنت تشعريني بها.

قلت: لا شكر على واجب. والحقيقة أن الطفل يحب من يقدم له الحلوى والألعاب، وأنت كنت تفعل ذلك. فما كان مني إلا أن أرد جميلك بالشكر تعبيراً عن فرحتي. وقد كنت بالفعل أحبك كما كانت خالتي تحبك.

قال وكان في قلبه لهيبا يحرق فؤاده: أواه، كم كنت غيبا إذ أضعت جوهرة لا تقدر بثمن، ولكن الأسوء من ذلك أنني كنت سببا في هلاكها.

قلت: ماذا جرى لك بعد أن ماتت خالتي وتركتك في الأسى، تبكي وتزور قبرها يوميا؟

قال: لا بد من مجرى الحياة أن يسير ويجرفنا في تياره، بعد سنوات كنت فيها كالغريق الذي لم يكن يجد شاطئ النجاة، و كالسكران الذي لا يصحو من شدة الألم، وكالمريض الذي لا تفارقه الحمى فتصرعه. بدا لي أن الخمر يخفف الآلام وينسي المصاب، فالتجأت إلى بعض الخمرات وبدأت أشرب الخمر ولا أعود إلى البيت إلا بعد أن أترنج وأنسى كل ما يجري حولي، حتى كدت مرة أن أنسى بيتي. ومرة حضرت راقصة إلى الملهى الذي كنت أحتسي الخمر فيه، وكان رقصها جذابا وجميلا. أحببت رقصها في البدء وبدأت استمتع به، ثم غرقت في حبها إلى شوشتي، كما يقولون. طلبت منها الزواج، فرفضت لأنها كانت تحب عملها

كراقصة ومقتنعة به تماما، ولم تكن تنوي استبداله بربة المنزل المحبوسة بين أربع جدران كما كانت تقول لي. لم أعد أطيق فراقها. ذهبت إلى مصر فلحقت بها، وكم كان ذللي وهواني عندما كنت أنتظرها على باب الحانة بعد أن تنتهي من رقصتها. كانت تعلم قصتي مع زوجتي الأولى وكانت تقول: "بعثني الله كي أنتقم لبردية".

قلت: وهل صدقت كلامها؟ إنها راقصة تعصي ربها ولم يكن عمك يدعوا للانتقام. فقد سمح الله بالزواج من أكثر من واحدة.

قال: نعم سمح بذلك، ولكن الراحمون يرحمهم الله. سمح بالطعام والشراب، ولكنه تعالى قال: "فكلوا واشربوا ولا تسرفوا". كان علي أن أكتفي بمن تحبني بهذا القدر ولا أسباب لها المرض والموت.

قلت: لا عليك، فالمرض والموت من المقدرات التي كتبها الله على الإنسان منذ أن كان نطفة في بطن أمه.

قال: نعم، ولكنه جعل الأسباب لذلك، وكنت أنا السبب. لم أرحم حبها، لم أرحم ضعفها وحاجتها إلي. الراحمون يرحمهم الله، وأنا لم أرحمها. هل تعتقدون أن من يزرع الشعير يحصد الحنطة. الله تعالى أعطانا الحرية وقال "مثنى وثلاث ورباع"، ولكن إن لم تعدلوا فواحدة، إن لم تعولوا... فواحد، أي إن كان هناك أي ضرر... فواحدة. أيها الإنسان لك كل الحرية في أن تفعل ما تشاء، ولكن حذار من الظلم، ارحم يرحمك الله، أدخل البسمة على القلوب يدخل الله البسمة على قلبك. وما تقدموا من خير... تجدوه.

قلت: ولماذا تركت زوجتك وأولادك الذين كانوا في حاجة إليك وذهبت إلى مصر لتهين نفسك في انتظار راقصة لا تحبك وتدعك تنفق الأموال عليها دون أن تستحق ذلك؟

قال: غباء وجهل. كانت الحجب تعمي بصري وبصيرتي، لم أصح من جهلي حتى صرفت كل أموالني على الراقصة، فطردتني، ورجعت إلى بيتي مخذولا ملوما وقد فقدت كل شيء، المال والاحترام والمنزلة الاجتماعية.

قلت: وكيف كنت تعيش بعد ذلك.

قال: كنت في آخر عمري أكسب العيش من صندوق أحمل فيه حلوى أبيعها للأطفال وأقف أمام خاناتي التي كنت أبيع فيها الحديد وأكسب المال الوفير.

قلت: لقد سمعت قصتكما وأتمنى لو أجد خالتي، وأسألها عن حالها.

قال: هيهات هيهات، خالتك ليست معنا ولن تكون معنا أبدا.

قلت: ماذا، هل هي في جب الأحران؟

قال: لا، لا تخاي، فهي في جنات ونعيم عند ملك مقتدر، إنها مع الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون. إنها شهيدة الحب.

فاطمة نوال بازرباشي